

المخطوآت الأولى
في تقدم الإنسان

كيف بدأ الانسان حياته جامعا للغذاء أقدم أساليب المعيشة الانسانية ..

لم تمضِ غير قرون قليلة على الوقت الذى كان فيه منظر هجوم ذئب جائع من الغابة ليخطف طفلا من الطريق فى قرية من قرى شمال أوربا أمراً عادياً ، بل وفى أيامنا هذه مازال النمر الآكل للبشر فى الهند والأسد المفترس فى أفريقيا مستمرين فى قتل الانسان ونهش لحمه .

وانقرضت تدريجياً الحيوانات الكبيرة الثديية رغم قوتها العظيمة ، ولم تستطع مقاومة القوى الطبيعية التى استطاع الانسان أن يتغلب عليها ، إذ ربح الانسان فى نفسه المقدرة على مواجهة الحيوانات الثديية التى كانت تنافسه فى السيطرة على الأرض ، وبهذا أصبح تقدمه ساحقاً لا يعرف الرحمة ، فاخترت الزرافة والفيل من شمال وادى النيل فى بداية العصور التاريخية ، على الرغم من أن الأسلحة التى استعملها الذين عاشوا فى عصر ما قبل التاريخ كانت أسلحة بدائية ، وكذلك تسبب الملوك المحبون للصيد فى بلاد الشرق القديم فى القضاء على الفيلة الآسيوية من سهول أعالي الفرات منذ بضعة آلاف من السنين .

وكاننا نعلم جيداً كيف تم القضاء على حيوان البيسون فى أمريكا وكذلك كيف أصبحت الفصائل الباقية من الغوريلا على وشك الاختفاء من أفريقيا ، مما جعل علماء التاريخ الطبيعى يرون أن تقدم صناعة الأسلحة فى الأجيال القليلة الماضية كاد يجعلنا نصل إلى آخر عصر الثدييات .

وليس هذا إلا مثلاً واحداً واضحاً لا تنصّر الإنسان ، فإن نفوقه لم يأت إلا بطيئاً

جداً ، وعلى مراحل تدريجية . واستطاع العلم الحديث أن يتتبع تطور تلك المراحل على مدى مئات الآلاف من السنين ، ونستطيع أن نرى بجلاء ، وخطوة بعد أخرى ، كيف ازدادت مقدرة هذا الإنسان في الدفاع عن كيانه بين العناصر المتنافسة على الحياة ، وتحصين نفسه أمام قوى الطبيعة ، وقد ازدادت إلى حد كبير عندما أصبح هذا الانسان أول المخلوقات بل والوحيد من بينها الذي أمكنه صنع الأدوات .

ونحن نعرف عن بعض الحيوانات قدرتها على مسك العصا أو قطعة من الحجر واستعمالها كآلة في يدها ، ولا شك أن السلف من أجدادنا الذين عاشوا في أقدم عصور الانسانية فعلوا ذلك أيضاً ، ولكن هؤلاء السلف الأوائل خطوا خطوة إلى الأمام وكانت خطوة أساسية لم يستطع غيرهم من المخلوقات أن يخطوها . لاحظ الإنسان أن حجره الذي التقطه من الأرض لم يكن ملائماً تماماً لغرضه ، لقد فحص شكله ولم يرض عنه ، وعدم الرضاء عامل مهم في التقدم بل أساسى له . وهكذا ربما خطر لأحد الرجال البدائيين والذي كانت لديه موهبة التفكير أكثر من غيره أن يضرب حجراً بآخر ، وهكذا تمكن من تحسين شكل الحصاة التي التقطها وجعلها أكثر ملاءمة للغرض الذي أراد أن يستعملها فيه ، وبهذا صار أول المخلوقات التي صنعت الأدوات . أصبح مخلوقاً يستعمل ذكاه لا لسد جوعه بما يجده من مواد غير حية فحسب بل يستعمل ذكاه أيضاً لتشكيل بعض أنواع الجماد لتصبح أدوات تساعد كثيراً في السيطرة على دنياء التي حوله وما فيها من كائنات حية أو غيرها .

وتقدمت خبرة هذا الانسان في صناعة الأدوات والآلات وتدير الحيل الآلية . ولم تقف هذه الخبرة عند الحد الأول بل استمرت وكانت لها أعماق الأثر في ارتقائه . وكانت مقدرته في صناعة الأدوات السبب الرئيسى في تطور مركز هذا الانسان في الحياة الانسانية .

ولكى ندرك هذا الأمر يجدر بنا أن نتلفت أولاً حولنا ثم ننظر إلى الوراثة

فإننا نعرف جميعاً أن أجدادنا لم يستمعوا في حياتهم إلى جهاز الراديو أو رأوا طائرة عندما كانوا في سن الطفولة ، وأن قليلاً جداً من بينهم من استقل سيارة في يوم من الأيام . وعاش آباء هؤلاء أكثر أيام حياتهم بغير نور كهربائي أو تليفون في منازلهم . وكان أجدادهم مضطرين لقطع مسافات شاسعة في عربات السفر التي تجرها الجياد . ومن بين هؤلاء من مات دون أن تكتحل عيناه برؤية القاطرة . فقد اخترعت هذه الأشياء واحدة تلو الأخرى ووصلت إلينا ، وسنخترع أشياء أخرى وستؤثر في حياتنا . وكل واحد من هذه الاختراعات يستند إلى ما كان قبله ، ولو لاها لكان من المستحيل أن تتحقق إذا لم تسبقها أبحاث أقدم منها ، وإذا تعمقنا قليلاً في دراسة تاريخ الجنس البشري فإنه يسهل علينا أن نتصور اليوم الذي عاش فيه الإنسان وكان من المستحيل عليه عمل عربة سفر أو أى نوع من العربات لأن العجلة لم تكن قد اخترعت بعد ولأن أحداً لم يذلل الجواد البري .

وقبل تلك الأيام لم تكن هناك سفن ولم يكن هناك سفر أو تجارة عن طريق البحر ، ولم تكن لديه أدوات معدنية لأنه لم يكن هناك من رأى معدناً إذ ذاك . وكان من المستحيل أن تقام مبان جميلة أو أى أبنية من الحجر إذ لم يكن الإنسان قد عرف استعمال أدوات من المعدن لقطع الإحجار . ولم يكن ميسوراً لأحد من الناس أن يكتب شيئاً لأن الكتابة لم يكن قد اخترعها أحد ، وبالتالي لم تكن هناك كتب أو أى معرفة بالعلم .

فإذا ما تعمقنا أكثر من ذلك في الإلمام بقصة الإنسان نجده همجياً ولكنه أرقى قليلاً من الحيوانات التي حوله مهما كانت متقدمة ، إنه لم يكن يمتلك شيئاً غير يديه الفارغتين يستعملهما لحماية نفسه وإشباع جوعه وتأدية كل أغراضه الأخرى . ولا شك أنه كانت تعوزه القدرة على الحديث المنتظم ولم يكن في مقدوره أن يشعل النار ولم يكن هناك من يعلمه شيئاً من ذلك . وهكذا كان أقدم البشر مضطرين لأن يتعلموا كل شيء بأنفسهم عندما بدأوا في تلك الحالة . وكان سيلهم

إلى ذلك التجربة البطيئة والمجهود الطويل . لقد مرت أجيال طويلة على هذا الإنسان وكان في ذهنه الهمجي شيء من شعاع الذكاء ولكنه لم يحقق شيئاً من هذه الاختراعات بل لم يفكر في أنه في استطاعة الإنسان أن يتمكن من إنتاجها ، ثم جاء الوقت الذي أخذ فيه يخترع كل أداة من هذه الأدوات مهما كانت بسيطة لأنه لم يكن هناك شيء منها . وهكذا نرى أن قصة تاريخ الإنسان هي — إلى حد غير قليل — قصة الانتصار على الموارد المادية باستعمال حيل مختلفة وأدوات وأشياء آلية ، إذا ما أدخلنا في حسابنا النتائج التي ترتبت على اختراع هذه الأدوات في النواحي الاجتماعية والسياسية والفنية والدينية . لقد كانت قطعة الحجر التي استعملها هذا الإنسان البدائي ليستعملها كسلاح في قبضة يده رمزاً مميزاً للعصر الحجري قبل مائتي ألف سنة مضت كما أصبح البخار أو الاسطوانة الكابسة في الآلات التي تدار بالبتروول رمزاً على عصرنا الحاضر (١)

لم يعد يعيش على سطح الأرض أي قوم على الحالة التي كان عليها يعيش أقدم البشر أي دون أن يكون لديهم أي علم بالأدوات أو الآلات ، ولكن هناك بعض أقوام متأخرين يحيون حياة همجية وكانوا عند العثور عليهم يحيون حياة من أخط أنواع الحياة السائدة بين القبائل الهمجية ، ويكادون يشبهون أسلافنا البدائيين . ولنضرب مثلاً لذلك بسكان جزيرة تسمانيا (٢) الذين انقرضوا الآن فقد كانوا عندما اكتشف الهولنديون جزيرتهم منذ أكثر من ثلاثمائة سنة يعيشون عراة الأجسام ولم يكونوا قد تعلموا بعد كيف يصنعون قوساً أو سهاماً ولم يعرفوا

١ - كان ذلك قبل الحرب العالمية الثانية صحيحاً أما الآن فإن الاختراعات تقدمت كثيراً وغلب استعمال الذرة على ماسبقه من اختراعات وأصبحت هي الرمز المميز للعصر الذي نعيش فيه - المغرب

٢ - جزيرة Tasmania تابعة لأستراليا وتقع إلى الجنوب منها يفصلهما مضيق باس Bass Strait اكتشفها الملاح الهولندي الشهير أبل تسمان Abel J. Tasman في عام ١٦٤٩ - وهو الذي يرجع إليه الفضل أيضاً في اكتشاف نيوزيلاندا وجزائر فونجا وجزائر فيجي - المغرب

صيد السمك إلا بوساطة استعمال الخربة . ولم يكن لديهم خيول أو حتى كلاب . ولم يسمعوا في حياتهم شيئاً عن بذر الحب أو زرعه ليخرج محصولاً من أى نوع . ولم يعرفوا أن الطين يصبح صلباً إذا وضع في النار . وترتب على ذلك أنه لم يكن لديهم أوان أو أباريق أو أطباق من الفخار لحفظ الطعام . وبالرغم من أنهم كانوا عراة ولا مأوى لهم فقد تعلم هؤلاء التسمانيون كيف يؤدون القليل من حاجات الإنسان ، ومع ذلك فإن هذا القليل الذي تعلموه حملهم إلى الامام مسافة غير قليلة تفوقوا فيها على الحالة التي كان عليها أقدم أفراد الجنس البشرى . كان في استطاعتهم أن يوقدوا النار التي كانت تدفئ أجسامهم في أيام البرد ، وكانوا يطهون عليها اللحم . وتعلموا كيف يصنعون حراباً من الخشب كانت جيدة الصنع جداً ، ولكن لم يضعوا قطعة من المعدن في آخرها لأنهم لم يكونوا قد سمعوا به . بل كانوا يضعون في آخر هذه الحراب الخشبية قطعاً من الحجر بدلا من المعدن . وأحسنوا استعمال هذه الحراب ، وكانوا يقذفونها بدقة عظيمة فيصيرون صيدهم الذي كانوا يحتاجونه للطعام ويطاردون بها أعداءهم من الناس . وكانوا يعرفون أيضاً كيف يأخذون حجراً مسنوناً ويشذبون أطرافه ويجعلونها رقيقة فتصبح سكيناً استعمالوها رغم أنها كانت غير متقنة وبدائية الصنع لسلخ الحيوانات التي اصطادوها وتقطع لحومها . وكانوا مهرة جداً في صنع فناجين وأواني وسلال من لحاء الشجر . ولكن أهم من ذلك كله أنه كانت لهم لغة بسيطة تحتمى على كلمات لجميع الأشياء العادية التي استعمالوها أو فعلوها في حياتهم اليومية .

عاش أقدم البشر عدة مئات من آلاف السنين حياة أقل حضارة من حياة التسمانيين ، وقد عثر العلماء على مخلفات هذه الحياة غير المتمدنية في كثير من أرجاء أوروبا وآسيا وإفريقيا ، ولكن لا يعرف أحد في أى مكان تمت جميع المراحل التي ساعدت على تكوين الإنسان كما نعرفه الآن ، أو بعبارة أخرى المكان الذي تمت فيه عوامل

ما نسميه الإن بالنشوء . أدنهالة ك لا بأس بها تجعلنا نزن أن ظهور الإنسان لأول مرة كان فى أفريقيا . كما أن هناك أدلة لا بأس بها أيضاً على أنه نشأ فى آسيا . وكان ظهور الإنسان فى ذلك الزمن البعيد الذى يسميه الجيولوجيون باسم البليوسين Pliocene أى منذ بضع ملايين من السنين ، وكان فى نشأة الأولى لا يكاد يختلف عما حوله من الحيوانات الأخرى التى عاش بينها . كانت هذه الحيوانات أقل ذكاء منه ولكنه شابهها فى عدم تركه وراءه ما يبقى على مر الأيام ليدل على وجوده ، فقد كان التقدم الذى رفعه إلى مستوى أعلى من مستوى الحيوانات المنافسة له يكاد لا يحس به أحد فى البداية . كان بطيئاً جداً ، إذ استغرق التقدم الذى أوصله إلى عتبة الحضارة ملايين السنين ، كما استمر هذا البطء أيضاً بعد أن خطا تلك الخطوة وبعد أن أسرعت به اختراعاته وأدواته التى صنعها بيديه منذ مليون سنة على الأرجح . واستطاع الأثريون فى غرب أوربا أن يجمعوا من مصادر متعددة ما مكنهم من كتابة قصة مفصلة جداً لحياة الإنسان قبل ظهور المصادر المكتوبة ، وجاءت الاكتشافات الحديثة فى إفريقيا وآسيا وشرق أوربا فأيدت إلى حد كبير النتائج التى وصل إليها زملاؤهم العلماء الذين كانوا يعملون فى غرب أوربا ، وهكذا أظهرت الأبحاث فى كل المناطق التى كانت ميداناً للبحث تشابهاً عاماً فى تتابع مراحل التقدم الإنسانى نحو الحضارة . ولكن كيفما كان الأمر فمن الواضح أن مثل هذا التقدم لا يمكن أن يحدث فى وقت واحد أو على وتيرة واحدة فى أمكنة مختلفة فى العالم . فمثلاً استطاع كل من سكان مصر وغرب آسيا من اختراع الكتابة قبل أن يعرف غربى أوربا أية طريقة للكتابة بثلاثة آلاف سنة . وكذلك استعمل المصريون وسكان غربى آسيا الأدوات المعدنية وكانت لهم صلة تجارية بغيرهم من الأمم بواسطة السفن فى الوقت الذى كان فيه الأوربيون مازالوا يبنون منازلهم مستعينين بأدوات من الحجر ، ولم يعرفوا على الأرجح أية وسيلة من وسائل الملاحة غير الزورق المنحوت فى

جذع الشجرة . ومع هذا فهناك أمر اتفق عليه جميع الباحثين وهو أن مراحل الحضارة القديمة التي كانت أساساً لحضارتنا الحالية لم تنشأ في قارة أوروبا بل إنها تطورت في الناحية الشرقية من البحر الأبيض المتوسط في كل من مصر وغرب آسيا . ولكنه من الأسلم بل ومن الأفضل أن تتبع قصة حضارة الإنسان في أقدم عصوره في كل بلاد البحر الأبيض بدلا من تتبعها في قطر واحد لأن هؤلاء الناس عاشوا حول هذا البحر ثم انتشروا منه إلى داخل القارات فذهبوا شمالا إلى البحر الشمالى وعبروا إلى الجزر البريطانية وانتشروا جنوبا عبر إفريقيا في المنطقة التي نسميها الصحراء الكبرى واتجهوا أيضا نحو الشرق حتى اجتازوا الخليج الفارسي .

كانت أراضي منطقة البحر الأبيض المتوسط عندما ظهر الإنسان مختلفة عما هي عليه الآن فكانت الغابات الشاحخة على ضفتي مجارى الأنهار في أوروبا ، وكانت تملأ كثيرا من وديانها المتسعة ، وكانت تغطي أيضا أجزاء من هضبة الصحراء الكبرى التي كان أكثرها في تلك الأيام منطقة خضراء وفيها المياه الكافية . وكانت أفراس النهر ذات الحجم الهائل تتمرغ على شاطئ تلك الأنهار ، وكان وحيد القرن الشرس الطباع يهاجم ما يعترض طريقه في النباتات الكثيفة على جانبي الأنهار . وكانت هناك فيلة ذات أنياب هائلة الحجم ترعى إلى جانب ما بقي إذ ذاك من حيوانات . أما في أوروبا فإن أسلاف ما شيتنا الأليفه كانت ترعى في المرتفعات ، وكانت أسراب الأيائل تأوى إلى بعض أشجار الأماكن الفسيحة في وسط الغابات . وكانت قطعان الخيل الوحشية تتجول هنا وهناك ووصل بعضها جنوبا إلى إيطاليا . وكانت بعض الثدييات الأفريقية ذات الحجم الضخم تتجول كما يحلو لها من كل مكان من أوروبا وإفريقيا ومن بينها الفيل الجنوبي (Elephas meridionalis) الذي كثيرا ما يعثر على عظامه الآن فوق المنحدرات العليا لنهر السين (Siene) أو وادي التيمس (Thames) وهذا يثبت أن إفريقيا كان متصلة بأوروبا في عصر ما ، وأن هذه الحيوانات وصلت برا من الواحدة إلى الأخرى .

أما الناس فكانوا يضربون في عرض غابات أشجار السيكويا (sequoia) مخترشين عراة الأجسام يجمعون قوتهم اليومي من بين جذور النباتات والحبوب والفواكة البرية حيثما يعثرون عليها ، ينصتون بحذر إلى صوت حيوانات الصيد الصغيرة التي عسائم يحصلون عليها بمساعدة عصيهم الخشبية البسيطة ، لأنه يجب أن نفترض أنهم استعملوا مثل هذا السلاح الخشبي لأن الغابات كانت مملوءة بفروع الأشجار الجافة التي سقطت على الأرض .

وفي هذا العصر الخشبي الذي زالت كل ادواته وأسلحته أحس الانسان البدائي بأول دافع في هذا الكون بأنه في حاجة إلى تشذيب فروع الأشجار التي سقطت على الأرض ليجعل منها أداة أو سلاحاً لتأدية غرضه ، ومعنى ذلك أن أول مخلوق صنع الأدوات ولد في ذلك العهد ، وكان بهذا الجسد الأكبر لكبار المخترعين أمثال « وات ، Watt و « اديسون ، Edison

وفي فترة من فترات التطور البدائي لهذا الانسان تطورت أيضا إشارات الصوتية المعبرة عن الخوف أو الجوع أو العطش أو الآسى إلى أبسط نوع من أنواع الكلام . فكانوا إذا أحسوا بضجة الحيوانات الكبيرة في الغابة أو لمحوا قطعان الفيلة آتية من بعيد يفرون مذعورين وهم يتصايحون لينبهوا إخوانهم . وفي الليل كان الصيادون ينامون في كل مكان أوصلهم إليه صيدهم ، ينامون بعد تقطيع لحم فريستهم بمدى من الخشب على الأرجح ويأكلونها دون طهي ، ولم يكونوا قد عرفوا النار ليدروا بها الحيوانات المفترسة فكانوا يقضون ليلهم يرتجفون في الظلام عند سماعهم لزئير النمر الكبير ذي الأنياب الحادة . وأخيرا عرفوا ما هي النار . عرفوها على الأرجح في الغابة عندما أصاب البرق شجرة فالتهمت ، ولابد أنهم تعلموا أيضا كيف يخافونها عندما كانوا يقفون بعيدا ويرون البراكين المخيفة مثل « إتنا Etna ، و « فيزوف Vesuvius ، وكانت خطوة كبرى يوم عرف

بجعة
عن تورنجيه وكوستاري برشبار



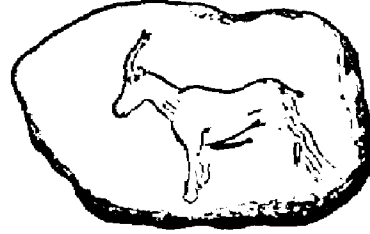
SWAN
(After Tournier
and Costa de
Beauregard)

طائر
عن باسما



BIRD
(After
Passemerd)

عن ليموزي



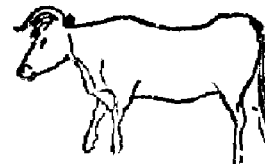
IBEX
(After Lemozi)

حمار وصغيره
عنه دو بيس - او برماير



ASS AND FOAL
(After Frobenius-Obermaier)

نقر وحشي
عن كابينان - بري - برون - بورييه



WILD CATTLE
(After Capitan-Breuil-Peyrony-
Boutrinet)

خنزير بري
عنه دو بيس - او برماير



BOAR
(After Obermaier-Wernert)

دب
عنه كابينان - بري - برون



BEAR
(After Capitan-Breuil-Peyrony)

أسد بقتل من رأسه
عن فلاماند



LION DEVOURING ANTELOPE
(After Flamaud)

وجد الفريز

عنه كابينان - بري - برون



RHINOCEROS
(After Capitan-Breuil-Peyrony)

شكل ١ : حيوانات العصر الحجري

الملك هي بعض الحيوانات التي نجدها في النقوش الملونة والرسوم التي تركها
الانسان الذي عاش في العصر الحجري . انظر أيضا شكل ٦

هؤلاء الأوائل بعد وقت طويل كيف يشعلون نارا بأنفسهم ، فاستطاعوا أن يعدوا طعامهم ويدفئوا أجسامهم ثم جعلوا نهاية حراهم الخشبية أشد صلابة بوضعها في تلك النار . ولكن لم يستطيعوا أن يجعلوا سكاكينهم البدائية أكثر صلابة كما فعلوا بالحرا . وربما كانت نتيجة ذلك أنهم تعلموا صناعة هذه السكاكين من العظم ، وكثير ما التقطوا أيضا حجرا صغيرا مكسورا من حجر آخر واستعملوا حده غير المشذب فيما يستعملون فيه تلك السكاكين من أغراض . وفي يوم من الأيام - وكان ذلك في أغلب الظن قبل مليون سنة تقريبا - عرف الانسان كيف يهذب الحجر ليصبح ملائما لحاجته وصنع منه آلة بسيطة أو سلاحا ، وبهذا دخل فيما نسميه الآن العصر الحجري (Stone Age) .

كانت هذه الأسلحة والأدوات الحجرية خيرا بما سبقها فلم تتعفن ولم يقض عليها الزمن مثل مثيلاتها من الخشب والعظم ، وبقيت إلى الآن ، وأصبح في ميسور أن نقبض في أيدينا على الأدوات الحجرية نفسها التي تمكن بواسطتها أوائل الناس من الاحتفاظ بوجودهم أثناء نضالهم المستمر ليحصلوا على القوت ويجدوا مكانا ينبت مناوئهم من الحيوانات الضخمة التي كانت حولهم ، وأوضح لنا هذه الأدوات الحجرية وبقايا أجسام الأوائل التي عثر عليها في الطبقات الجيولوجية في صورة لا تقبل الشك مدى الزمن الطويل الذي مضى على الانسان منذ ظهوره في هذه الدنيا . وكان من المفروض حتى وقت قريب أن التاريخ الانساني كان قصيرا نسبيا . وكان من المفروض أيضا أن أجدادنا الأقدمين في أوائل وجودهم على الأرض لم يخلفوا وراءهم ما يدل عليهم . فنحن نعرف مثلا من خطاب مؤرخ في عام ١٧١٤ أن صيدليا عثر على عظام فيل في بقلعه ملأى بالخصى على مقربة من لندن ، وإلى جانب هذه العظام وجد أيضا سلاحا من الظران . وقد نشر هذا الخطاب عقب الاكتشاف مع رسم لهذا السلاح الحجري واستنتج الكاتب أن ذلك الحيوان لم يكن إلا فيلا من الأفيال التي كان يستعملها الرومان في الحرب وأنهم أتوا به إلى تلك البلاد ، ولم يلق



شكل : ٢ جماعة من هنود أمريكا الشمالية يصنعون آلات الطران

يقوم الشخص الآخر في الصورة بانتقاء حجر كبير ، وتلك هي المادة الأولية التي يأخذها الهندي الذي في الوسط ليحطمها فوق صخرة الى قطع صغيرة . ويأخذ الهندي الثالث احدى تلك القطع بعد ذلك في يده اليسرى ويضربها بحجر في يده اليمنى ، فتتناثر شظايا الطران وقد برع ذلك الهندي في عمله وأصبح من السهل عليه أن يشكل تلك القطعة الى فأس من الطران . وكانت هذه العملية ، وهي عملية تشكيل الطران بواسطة الطرق أو القرع هي أقدم الطرق وأكثرها سداجة ، وكانت لا تنتج الا الادوات الحجرية الخشنة الصنع

أحد بالا إلى هذا الاكتشاف وسرعان ما نسيه الناس . وفي مدى قرن من الزمان بعد ذلك تكرر العثور على أمثال هذا الاكتشاف سرا في إنجلترا أو في القارة الأوروبية وكان مصيرها أيضا النسيان . وظل الأمر كذلك حتى عام ١٨٦٠ أى بعد مضي ما يقرب من قرن ونصف على العثور على هذا الاكتشاف . ففي ذلك الوقت فقط تفتحت عيون العلماء على حقيقة طول فترة وجود الانسان على سطح الأرض ، وعرف العلماء أن الانسان خلف وراءه كثيراً من تلك الأدوات الحجرية منذ مليون سنة ^(١) على الأرجح وعرفنا من دراسة هذه الأدوات كيف كان هذا الانسان يحسن وسائل حياته وذلك من تقدمه في صناعة وتشكيل الأحجار واطراد التحسن في الصناعات الأخرى التي بدأ يتعلمها . كانت أوروبا وخاصة فرنسا أولى البلاد التي بدأ فيها بحث العلماء عن أدوات ومخلفات الانسان الذي عاش في العصر الحجري . إذ ترك الصيادون الأوائل بعض آلاتهم الحجرية البدائية وأسلحتهم جنباً إلى جنب مع عظام الحيوانات الكبيرة التي قتلوها . وبقي كل ذلك في الرمال والحصى على جوانب مرتفعات الوديان التي كانت تجرى فيها أنهار فرنسا قبل أن تعمق مجراها . وعثر الحفاريون في فرنسا على الكثير من مخلفات الحياة في العصر الحجري . وكانت كثيرة إلى حد جعلهم ينشئون مجموعات في المتاحف لتلك الأدوات

١ - أثبتت أبحاث بعثة دراسات ما قبل التاريخ التي قام بها المعهد الشرقي بجامعة شيكاغو في مصر أن المرحلة الأولى التي بدأ فيها الانسان يصنع الأدوات ترجع إلى فترة البليوسين (Plio-Pleistocene) أي إلى العصر الذي يسبق مباشرة بداية البليستوسين أو العصر الجليدي أما الجيولوجيون الأمريكيون فيرون أن منطقة أعالي نهر المسيسيبي هي خير مكان في العالم لدراسة العصر الزمني في العصر الجليدي . وقد وصل الدكتور جورج كاي George F. Kay بعد دراسات طويلة متصلة وخاصة بالمراحل في ولاية أيوا (Iowa) إلى القول « وبلوغ أنه أمر محقق إذا قلنا أن عصر البليستوسين (أي عصر الجليد) استمر مليون سنة وربما ضعف هذا الوقت » (انظر خطابه كاتيب رئيس الجمعية الجيولوجية الأمريكية في مجلة Bulletin of the Geological Society of America vol. 42 (1931) P. 466) في مجلة of the Pleistocene Period . ولكننا يجب أن نضع في ذهننا أن ماوصلت اليه معلوماتنا في البحث في هذا الموضوع لا يكفي لوضع تاريخ محدد لا يحتمل الشك

الحجرية ، وظهر بعد ذلك الكثير من أمثالها وبنفس الكثرة في ممالك أوروية أخرى ، وهكذا كان الأمر في شمال أفريقيا إذ عثر الباحثون على آلات حجرية في منطقة تبدأ من الجزائر إلى أسفل وادي النيل ، وفي آسيا أيضا على إمتداد الشاطئ الشرقى للبحر الأبيض المتوسط .

وبالرغم من أن هؤلاء الأوائل من بنى الانسان كانوا على ما يظهر يموتون بكثرة نتيجة لحياتهم المحفوفة بالمخاطر فإنهم استمروا آلاف السنين في كفاح مر لأجل البقاء ، وتحسنت أسلحتهم البدائية المصنوعة من الحجر ، وكان هذا التحسن بطيئا ، ومن المحتمل أنهم تعلموا أيضا كيف يصنعون أدوات أخرى من الخشب ، ولكن الأخيرة تعفنت واختفى أثرها ولم نعد نعرف شيئا عنها .

لم يكن هناك حيوان لم يجد فيه هؤلاء الصيادون عدوا لهم ، وكان عليهم أن يجرّدوا كلا من أسلحتهم الصغيرة ومكرهم ليحاربوا بها قوة الحيوانات ومكرها . لم يكن هناك حتى ذلك العهد كلب أو شاة أو طير يعطفون عليه ، إذ كان سلف هذا الكلب الأليف مازال حيوانا مفترسا شبيها بالذئب يعيش في الغابة يشب على كل صائد لا يكون على حذر . وكانت أسلاف حيواناتنا الأليفة بوجه عام تتجول في الغابات في حالة وحشية . ولكن مع كل هذه الصعاب ورغم كل ما كان يعوق طريقه في سبيل البقاء فقد كان ذلك الانسان الذى عاش في عصر البليستوسين أسعد حظا من أخيه الذى جاء بعده ، وذلك أنه كان يعيش في جو دافئ معتدل حيث كان جمع القوت أمرا سهلا وميسورا .

العصر الجليدي الكبير

والإنسان في العصر الحجري القديم

كانت الأرض في ذلك الوقت غنية بحيوانها ونباتها ولكنه كان مقدراتها أن تمر بفترة من أحرج الفترات في تاريخها . كانت هناك عمليات تكوين في الجبال وحركات أرضية في عصر البليوسين Pliocene ولما كانت هذه العمليات مرتبطة بتغيرات مناخية هامة تأتي على أثرها فإن نتائجها كانت دائماً وخيمة العاقبة . ولم يكتشف الجيولوجيون والمناخيون حتى الآن السبب الذي جعل المناخ يصبح أشد برودة وأكثر رطوبة مما كان عليه منذ آلاف السنين ، وتساقطت الثلوج بكثرة وخاصة على قمم الجبال نتيجة لهذا التغير وبدأت تلك الثلوج تتراكم وتنتشر حول مراكز سقوطها . وفي النهاية تكونت طبقات هائلة من الثلج فوق الأرض تقدر مساحتها على سطح الأرض بنحو ١٢ مليون ميل مربع . وفي العصر الذي بلغ فيه الثلج أقصاه يرى بعض الباحثين أن الثلج امتد عبر أمريكا الشمالية وجنوباً حتى جزيرة لونغ (Long Island) وغرباً حتى وديان أوهيو Ohio وميسوري (Missouri) وفي أوروبا وآسيا وصلت حواف الطبقات الجليدية الشمالية العظيمة إلى الساحل الجنوبي لإنجلترا وامتدت جنوباً وشرقاً عبر أوروبا حتى خط عرض ٥٠ في وادي الدنيبر Dnieper ، ومن هناك اتجهت شمالاً وشرقاً إلى جبال أورال . ويظهر أن مساحات أخرى من التلاجات زحفت من جبال البرانس (Pyrenees) والألب وجبال الكاربات Carpathians والبلقان في أوروبا ، ومن سواحل آسيا الصغرى ، ومن لبنان والقوقاز والزاغروس (Zagros) وغير ذلك من جبال إيران في غرب آسيا ومن القمم المرتفعة في وسط آسيا .

أما في نصف الكرة الجنوبي فإن التلاجات تركزت في القارة المتجمدة الجنوبية.

وسنطلق على هذا العصر الجليدي اسم «العصر الجليدي الأعظم» تفرقة له من عصور جليدية أخرى حدثت في فترات سابقة من تاريخ الأرض .

ويعمل الجيولوجيون على تحديد حركات وامتداد طبقات الجليد من الآثار التي خلفتها . ومثل هذه الظواهر - ظواهر تحركات طبقات الجليد - توجد في الوديان المتكونة من تآكل التربة . وتوجد مثل هذه الدلائل عن تحركات الغطاء الجليدي في أماكن وجود الصخور المنتقلة، وتوجد أيضا في طبقات الطين المتراكمة فوق بعضها أو في المستويات المتوازية المحفورة في الصخور التي مرفوقها الغطاء الجليدي .

ومن النتائج التي وصل إليها العلماء في دراسته مجازي الثلاث، القطع بوجود عدة عصور جليدية تفصل بينها فترات أدفا عندما ذابت الثلوج تماما أو قلت نسبيا . ويختلف الجيولوجيون الآن في تحديد عدد العصور الجليدية إلا أنهم متفقون في وجود اختلاف في المناخ أثناء العصر الجليدي الأعظم وماتلا ذلك خلال نحو مليون من السنوات عندما كانت الطبقات الجليدية تزحف وتراجع مرات عدة . ومن الواضح أن المساحات المحيطة بالطبقات الجليدية كانت شديدة البرودة ، ولكن بالرغم من هذا فقد كانت هناك أجزاء كبيرة من فرنسا والنمسا والمانيا لم تكن مغطاة بتاتا بالثلوج وأن كثيرا من رواسب الفترات التي تخللت العصور الجليدية تحتوي على بقايا حيوانات مما تعيش في المناطق المعتدلة أو النصف استوائية مثل فرس النهر والأسد في إنجلترا والجل وحيوان التاير tapir في جنوب أمريكا الشمالية . وفي خلال الفترات التي فصلت بين العصور الجليدية كان مناخ أوروبا وأمريكا الشمالية دافئا كما هو الآن . وعلى هذا يمكننا القول بأن مساحات كبيرة من أمريكا الشمالية وأوروبا كانت آهلة بالسكان طوال العصر الجليدي الأعظم الذي يطلق عليه الجيولوجيون اسم بليستوسين Pleistocene

وكان زحف الجليد سببا في جعل حياة الناس الأوائل شمال حوض البحر

الأيض المتوسط شديدة قاسية ، ومن الجائز أن هؤلاء الاوربيين الأقدمين تقدموا كثيرا في ثقافتهم في الفترات التي توسطت عصور الثلج ، وإذا فحصنا خريطة لشمال إفريقيا فإننا نرى أن في المنطقة الواقعة جنوب البحر الأبيض المتوسط لا توجد إلا مساحة واحدة من تلك المساحات التي كانت تغطيها الثلوج وهي التي تقع في أقصى الغرب في المنطقة المجاورة لـ جبال أطلس . ومن ثم لم ترحف الثلوج على الهضبة المستوية في شمال إفريقيا وهي المنطقة التي نسميها الآن هضبة الصحراء الكبرى . ومن المحتمل أن نفس الرطوبة الجوية التي كونت الثلجات الهائلة على الجانب الشمالي للبحر المتوسط كانت هي العامل نفسه الذي سبب سقوط أمطار غزيرة على الجانب الجنوبي فوق تلك الهضبة ، وكان من أثرها نمو المراعي والغابات والأحراش في أجزاء كثيرة منها . ومن المحتمل أن الصيادين تتبعوا الحيوانات عبر هذه الأراضي الخصبة في شمال إفريقيا كما هو الحال الآن في الهضاب الواقعة في وسط جنوب إفريقيا . وكان هؤلاء الصيادون الأوائل يسرون وراء الحيوانات إلى المجرى الذي حفره نهر النيل عبر الحد الشرقي للصحراء . وكان النيل في ذلك العهد أوسع بكثير مما هو عليه الآن . وكان مثل نهر الميسوري (Missouri) يغير مجراه ولا يرجع إلى مجراه القديم مرة أخرى . وقد كشف البحث منذ وقت غير بعيد عن أحد المجرى الجافة لهذا النيل القديم الذي يبلغ طوله أكثر من ٥٠ ميلا موازيا للمجرى النهر الحالي . وعند الحفر في تراب مجراه إلى عمق أكثر من ١٨ مترا وجد الأثريون بعض أسلحة حجرية للصيادين الأوائل من الهضبة المستوية (الصحراء الكبرى) فقدوها أثناء بحثهم عن الحيوانات على ضفاف النهر ، وكان ذلك منذ مليون سنة على الأرجح ،

وتسمى أقدم الآلات التي صنعها الإنسان باسم الآلات الباليوليتية Paleoliths ويسمى الأثريون الوقت الذي صنع فيه الإنسان هذه الأدوات بالعصر الباليوليتي أو العصر الحجري القديم . وإذا أردنا تحديد مكان هذا العصر بين العصور الجيولوجية

من تاريخ الأرض فأننا نرى طبقات البلايستوسين Pleistocene strata في الطبقات الباليولينية Paleoliths في جميع الأراضي الواقعة حول البحر الأبيض المتوسط . وعلى هذا فإن العصر الحجري القديم للإنسان اتفق مع كثير من فترات العصر الجليدي الأعظم ، وتلك الأدوات الباليوليتية مصنوعة من الطران ، وكانت تذهب لتأدية الشكل المطاوب بطريقتين : أولاها وأقدمها طريقة الطرق أى شظف قطعة بضربات من قطعة أخرى وثانيتهما الطريقة الاحداث وهى الضغط وذلك باستعمال قطعة صلبة من العظم أو القرن لتهديب جانب واحد ثم يلى ذلك تهديب الجانبين معا (١) . ومن أهم الأدوات التى تميز أدوات العصر الباليوليتي نوع من الفؤوس هو أقدم الآلات اليدوية الثقيلة . وهذا النوع هو ما اصطلح الاثريون على تسميته باسم « قبضة اليد » (Coup de poing) وقد وجد الكثير من هذه الفؤوس فى الحصى فى كثير من المناطق حول البحر الأبيض المتوسط كما وجدت أيضا فى كثير من الاجزاء الاخرى فى الكرة الارضية . وكانت فؤوس قبضة اليد أوسع اختراعات الانسان انتشارا . وهناك أدوات أخرى مصنوعة من الطران صنعها الانسان الباليوليتي واستعملها كمخارز ومكاشط ونصال سكاكين وأسنة (ربما كانت تستعمل ليرموا بها ما يريدون صيده) ومقاطع ومطارق .

وإذا أردنا دراسة حالة الإنسان الباليوليتي من الناحية الاجتماعية أو الصناعية نجد أنه ينتمى إلى المجموعة التى يطلق عليها علماء الاجناس البشرية اسم « جامعى الغذاء » : وهم البدائيون الذين يأخذون ماتهم الطبيعة ولا يعملون شيئا ليزيدوا الانتاج الذى يأتيهم من الطبيعة . وكان الرجال يحملون إلى بيوتهم اللحوم التى حصلوا عليها من الصيد ، أما النساء فكن يجمعن الفاكهة والحبوب التى يجدها نامية . وبالرغم

١ - عند اكتشاف جزيرة تسمانيا كان سكانها يصنعون أدواتهم كما كان يصنعها الذين عاشوا فى العصر الحجري القديم

من أن مثل هؤلاء الناس لم يكونوا يعيشون في أماكن ثابتة ويتجولون عادة لجمع القوت من مكان لآخر بعد أن يستنفدوا ما فيه من قوت إلا أنه من الطريف أن نجد في أوروبا الباليوليتية بعض أماكن إستمر الإنسان في سكناها عصر بعد عصر



هذه الآلة كان يقبض عليها باليد من الناحية الأكثر سمكا ولم يكن لهذه القاس يد بالمرّة . والقاس التي تبدو في الصورة يبلغ طولها نحو ١٨ سنتيمترا . وقد عثرت عليها بعثة المعهد الشرقي التابع لجامعة شيكاغو

شكل ٣ : قاس قبضة اليد وجدت في مجرى قديم من مجارى نهر النيل

وإذا أردنا معرفة السبب الذى جعل هؤلاء الناس يعيشون في تلك الأماكن فإننا نرى أن السبب الرئيسى ربما كان البرد الشديد وقلة الكهوف والمآوى الصخرية الدافئة الجافة . كما أن هناك سبباً آخر لاستمرار وجود أمثال هؤلاء الناس في أماكن معينة هو وجود الظران الذى يصنعون منه أدواتهم ، وهكذا أصبحت بعض الكهوف والمآوى الصخرية سجلاً لتقدم الإنسان الذى عاش في ذلك العصر ، وذلك عند حفر طبقات تلك الكهوف ودراسة ما تركه ذلك الإنسان منذ اليوم الذى تمكن فيه من تشكيل أدوات الظران .

وفي هذه الأماكن الباليوليتية وجدت مدافن تحوى بقايا آدمية وأدوات شخصية للزينة وأسلحة أو آلات - وربما كانت هذه الأخيرة لأجل الحياة الأخرى

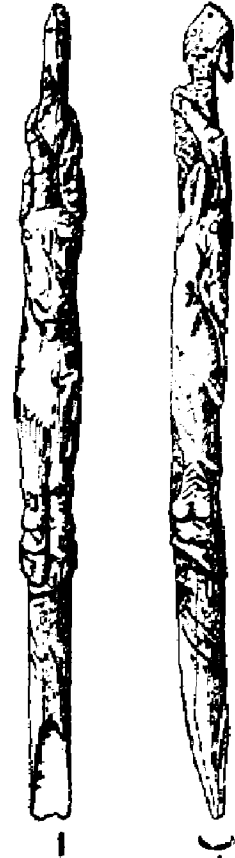
بعد الموت . وترينا هذه المدافن أن الرجل الباليوليتي لم يكن حيوانا مفكرا وحسب بل أن بقايا عظامه ترينا أيضا بعضا من خصائصه الجثائية ، إذ ثبت لنا من قامته القصيرة (من ١٤٢ - ١٦٠ سم) ومن وضعه المنحني ورأسه إلى الامام ومن أرجله القصيرة وجهته المتراجعة ، ومن البروزات الظاهرة فون عينيه ، ومن أنفه العريض وفكه البارز أنه كان صورة الانسان في مرحلة من مراحل تقدمه ، تلك هي صورة انسان النياندرتال (Neanderthal Man) الذي أخذ تسميته من إحدى المناطق الألمانية حيث عثر على مثل من أحسن الامثلة التي تحمل طابعه في سنة ١٨٥٦ . عاش رجل النياندرتال آلاف السنين وتطورت حياته بالتدريج إلى أن جاء الوقت الذي نجد فيه رجل الاوريجانيس (Aurigancian Man) نسبة إلى كهف أوريجانيس في فرنسا حيث عثر على سبعة عشر جثة منه تختلف فيما بينها ولكنها جميعا أطول قامه وأكبر من النياندرتالين ولكن واحدا من هذه الانواع الاوريجانسية كان غير طويل القامة إذ لم يزد عن ١٦٧ سم بينما نجد نوعا أوريجانسيا آخر اسمه « كرومانيون » (Cro-Magnon Man) نسبة إلى المغارة الفرنسية التي تحمل هذا الاسم ، تصل قامته أحيانا إلى ١٩٥ سم وليس هناك أي ظل من الشك في أن هؤلاء الاوريجانسيين أقرب إلى الانسان كما هو الآن .

كان الصيادون الاوريجانسيون أكثر حذكة ومهارة من سبقهم من النياندرتالين . عرفوا كيف يشظفون أدواتهم المصنوعة من الطران ياتقان وتناسب أكثر من ذي قبل . وكانت نصال سكاكينهم الصوانية ذات الحواف المشطوفة حادة لدرجة تكفي لتقطيع وتشكيل العظم والعاج وخاصة قرون أيل الرنة (Reindeer) . وأمد حيوان الماموث (Mammoth) هؤلاء الصيادين بالعاج ، وعندما احتاجوا للقرون وجدوا قطعانا عظيمة من الرنة دفع بها الجليد نحو الجنوب ، وهكذا أصبحت الرنة في ذلك الوقت من أكثر الأشياء التي اعتمد عليها الإنسان ، إذ استعمل الجلد لللبس واللحوم للطعام والقرون والعظام للأسلحة مما حدا ببعض

الباحثين لأن يطلق على هذا العصر «عصر الرنة» واستطاع الصيادون أن يصنعوا أسنة ذات شعب بفضل ما كان لديهم من أنورات. وكانوا يربطون خطافات الصيد

شكل ٤ : منظران لرامية حراب واحدة ، كان يستعملها صياد باليوليتي

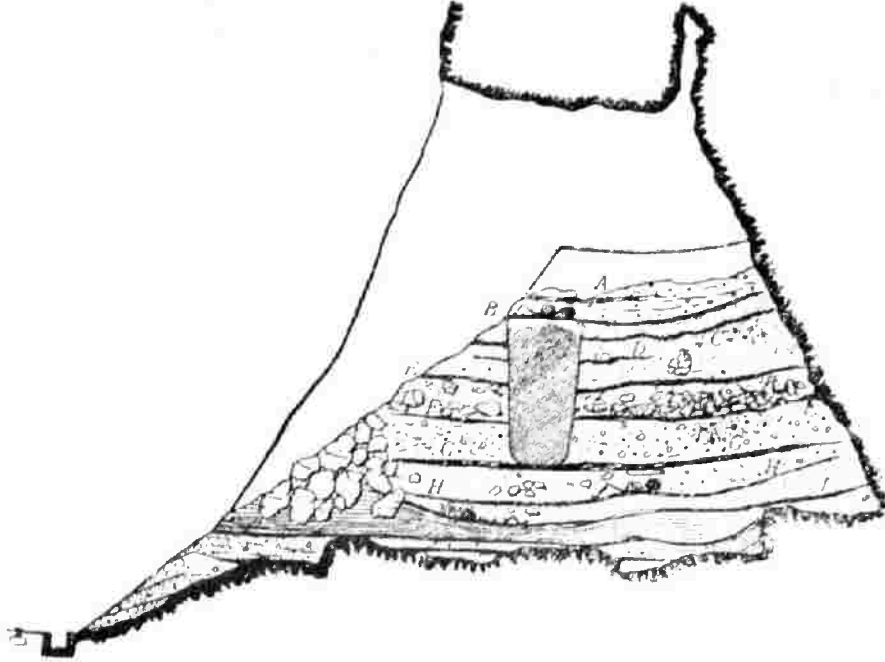
١ - كما ترى من الامام ب - كما ترى من الجنب وهي محفورة من قرن الرنة وفيها الرأس والارجل الامامية ل - لاحظ الخطاف في قمة ب لامتلاك الهدف الذي تصوب نحوه الحربة ورامية الحربة والقوس هما أقدم مخترعات الانسان لقدف أسلحته بسرعة



إلى حراب خشبية طويلة ، وكان يحمل كل فرد منهم حول وسطه خنجر آحاداً من الظران . وفي تلك الفترة اخترع الإنسان القوس والسهم أيضاً لأننا نجد رسوماً على الصخر تصور الصيادين وهم يستعملونها ، وتوصلوا بذلكهم إلى صناعة ما يمكن أن نسميه مقدم الحربة ، وكانت من قرن الرنة ، وكانت تستعمل لضمان عدم تقوس الحراب أو السهام . وتوصلوا أيضاً إلى اختراع ناجح يوم تمكنوا من صناعة أداة من القرن أو العاج مكنت الصائد من رمي حربه الطويلة إلى مسافة أبعد وقوة أكثر من ذي قبل . وتدلنا شصوص الصيد والخطاطيف على أن رجل العصر الحجري بدأ يكون صياداً للسماك كما كان صياداً للحيوانات . وتدلنا الإبر

العاجية الدقيقة الصنع على أن هؤلاء الناس تعلموا أن يقوا أنفسهم من البرد ومن أشواك النباتات البرية وذلك بوساطة ملابس كانوا يحصلون عليها بخياطة جلود الحيوانات المقتولة إلى بعضها . وبذلك أصبح صيادو العصر الباليوليتي المتأخر أعداء أقوياء بالنسبة للحيوانات إذا قارناهم بمن سبقوهم . وقد استطاع الآثريون أن يخرجوا من كهف واحد في صقلية عظام مالا يقل عن ألفين من فرس الماء التي كان الصيادون قد قتلوها . وفي فرنسا قتلت جماعة من هؤلاء الناس خيولا برية كثيرة لطعامهم لدرجة أن العظام التي ألقيوها حول محلة نيرانهم تجمعت في أكوام ، وفي النهاية كوت طبقة يبلغ سمكها ٦ أقدام في بعض الأماكن وتغطي مساحة قدرها ٤٠٠٠٠ قدم مربع وهي مساحة مساوية تقريباً لأربع مربعات في إحدى المدن الحديثة مساحة كل منها ٥٠ × ٢٠٠ قدم مربع . عثر الحفاريون في مثل هذه الأماكن على الصفارة العظيمة التي كان يستطيع الصياد بواسطتها أن يعلن عودته لأسرته الجائعة التي تنتظره في الكهف . وعند وصوله إلى هناك كان يجد مسكنه وقد أحاطت به أكوام كريهة من النفايات . ووسط الروائح الكريهة المتصاعدة من اللحوم المتعفنة كان هذا الأوربي المتوحش يزحف داخل الكهف الذي كان يتخذ مسكناً بالليل ، غير مدرك أنه على عمق عدة أقدام تحت أرضية مغارته تتجمع بقايا أجداده طبقة فوق طبقة بفعل آلاف السنين .

وبالرغم من الظلام والهمجية اللذين كانا يكتنفان حياتهم اليومية فإن هؤلاء الصيادين البدائيين كانوا على وشك اقترابهم من الشعاع العظيم الذي ينير النفوس . فعندما كان كل واحد منهم يستلقى ليلاً في مغارته كان يستطيع أن يغلق عينيه ويرى في مخيلته صورة الحيوانات الهائلة التي كان يتبعها طول النهار . وبالمثل كان يستطيع أن يسترجع في ذهنه صورة أشجار غريبة تذكره أشكالها بحيوان من الحيوانات أو كان يرى وهو يتقلب صورة كتلة بارزة من الصخر في مغارته تشبه في هيئتها شكل الحصان . وهكذا ظهرت في عقله فكرة المشابهة تدريجياً (الحيوان والشجرة التي تشبهه



شكل ٥ : قطاع يبين طبقات الرديم
والبقايا الانسانية فى كهف من العصر الباليوليتى

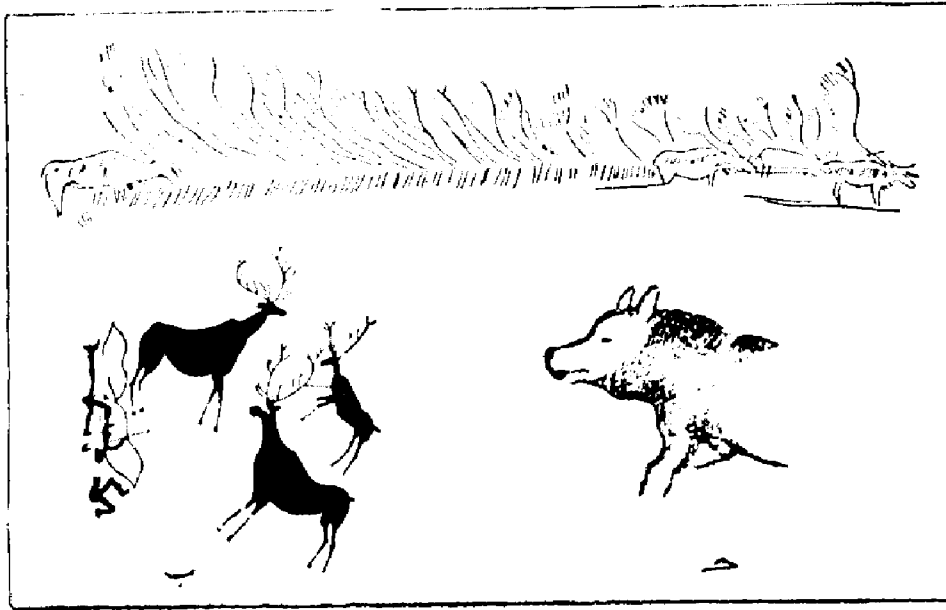
وهذا الكهف فى جريمالدى Grimaldi على الساحل الايطالى للبحر الابيض المتوسط . يوجد المدخل فى اليسار والجدار الخلفى فى اليمين ونرى الارضية الصخرية الاصلية فى القاع وفوقها طبقات الرديم التى يبلغ عمقها ٣٠ قدما وتمثل الخطوط السوداء التى بين أ ، ط طبقات الرماد والخ ٠٠٠ وهى مخلفات تسعة أماكن نيران تعاقبت وراء بعضها ، ولا بد أن الاهالى استعملوا كل واحد منها سنين طويله ونكون الطبقات الاكثر سمكا (المظلمة تظليلا خفيفا) من عظام الحيوانات والنقايات والصخور التى سقطت من سقف المغارة على مر السنين . وتحوى الطبقات السفلى (تحت ط) عظام الكركدن (وهى تدل على المناخ الحار بينما احتوت الطبقات العليا على عظام الرنة (وهى تدل على مناخ بارد) . وقد عثر المكتشفون على خمسة مدافن فى الطبقات ب ، ج ، ح ، ط واحتوت الطبقة ح على جثتين لطفلين . وكان المدفن الذى فى اعلى طبقة (فى ي) على عمق ٢٥ قدم من سطح الرديم فى الكهف . وبعد أن نشر المكتشفون هذا الرسم حفروا أمام الكهف فوجدوا على عمق ٦٠ مترا تحت السطح الاصلى للرديم أدوات من الظران وغير ذلك مما خلفه الناس الذين عاشوا هناك

(عن ديشليت Duchette)

والجواد والصخرة المستديرة التي تماثله). واستمر هذا التفكير وبدأ يلاحظ أنه يجب عليه أن يعمل على زيادة مشابة الصخرة البارزة بيديه لتصبح أكثر مشابة للحصان. ثم استطاع أن يقلد شكل شيء معين بتشكيل شيء آخر يشبهه. وبهذه الطريقة أمكن إبعده أن يعي التقليد. وفي هذه اللحظة ولد الفن، ودخلت نفس الإنسان في عالم جديد جميل مملوء بنور لم يضيء حياته من قبل. كان جسده يتطور منذ عصور، ولكن هذا الاكتشاف الجديد الذي وصل إليه وهو أنه يستطيع أن يخلق أشكالا جميلة مستوحاة من الصور التي في ذاكرته جعلت عقله يرتفع إلى مستوى عال جديد. وهذا أوضح مما عثر عليه الباحثون لبعض رسوم على أحجار صغيرة صنعها أناس مبتدئون محاولين أن يتعلموا الرسم. وهذه الرسوم السريعة تشبه التمرينات الحديثة التي تعلم في الاستديوهات، وما زالت التصحيحات التي خطتها يد أستاذ متمرن ظاهر عليها.

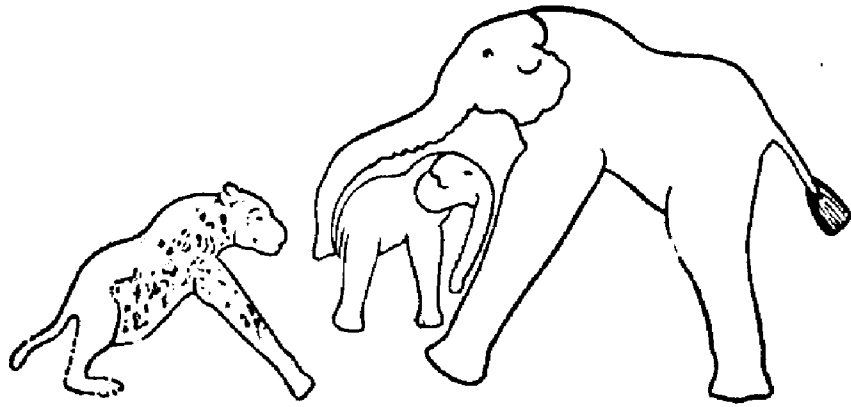
وقد عرفنا الكثير عن هذا العصر الإنساني من حياة الإنسان في عصور ما قبل التاريخ، من المجموعات الهامة من الأعمال الفنية التي اكتشفت في الأماكن الباليوليتية. يتخذ هذا الفن، من ناحية، شكل الحفر والنقش على العظم والعاج والقرون وكذلك الرسم على قطع من الحجر يمكن حملها. وكان بعض هذه الأشياء مفيداً في الاستعمال مثل رامية الحراب وخطا طيف الصيد واللوحات التي يضع عليها الفنان ألوانه، بينما كان بعضها الآخر مجرد الفن فقط مثل الرسوم المحفورة على ألواح من الحجر الجيري أو قطع متفرقة من العظم أو العاج. وتبدو النقوش والرسوم الكبيرة التي تزين جدران الكهوف والمسكن الصخرية في فرنسا وأسبانيا وإيطاليا أجمل مظهر أول لكنها ليست أكثر أهمية من الأشياء الأخرى. وقد ذكر بعض الباحثين أنه توجد على الصخور التي في الهواء الطلق في شمال إفريقيا من الجزائر عبر الصحراء شرقاً إلى أعلى النيل رسوم مماثلة. وكل هذه الرسوم غاية في الجمال ولكن يضارعا

في الروعة معرفة الرجل الباليوليتي للألوان . فقد استعمل منها الأحمر والأصفر والأسود . وكانت الألوان الجافة المسحوقة (البودرة) تحفظ في أنابيب صغيرة مصنوعة من العظام المفرغة عثر على بعض منها في الكهوف . ومن ضمن الأشياء التي وصلت إلى أيدينا وكانت مما استعمله الفنان الباليوليتي في عمله مدقات لسحق الألوان ولوحات لوضع الألوان عليها ، وحفارة من الطران يظهر أنها تركت في مكانها الأصلي إلى جانب نقش على جدار الكهف . وترينا كل هذه المخلقات إلى أية درجة عالية من المهارة في الأسلوب وصل الانسان الباليوليتي بعد أن مر بمراحل التطور ، وترينا كذلك كيف ساعدته مهارته على أن يشعر بجمال الحياة أكثر من قبل . ولكن الانسان الباليوليتي ذهب في حضارته إلى أبعد من ذلك ، إذ أنه عندما اعتدل المناخ في أوربا اختفى الانسان الباليوليتي واختفت معه صناعاته .



شكل : ٦ أمثلة من فن العصر الحجري
وجد قطع الرنة المرسوم في أ منقوشا على عظمة من جناح صقر . وهذا الرسم يبين لنا أن الفنانين الأوائل كانت لديهم فكرة عن التكوين في الفن ، وكانوا قادرين على رسم مجموعة من الحيوانات تشعرونا بعدد ضخيم وبطريقة تقرب من الطريقة الحديثة في الرسم . وفي ب يمثل منظر صيد رسمه الانسان الباليوليتي على مأوى منحوت في الصخر بعد أن اخترع القوس . أما رسم الذئب في ج فإنه منقول عن منظر في كهف في فرنسا
(عن بري Brenil)

ومن الجائز أن الحضارة تقلصت بعد فترة تقدم عظيم كما حدث بعد ذلك مرات عدة في التاريخ . ومن الناحية الأخرى نرى أن تغير المناخ سبب تغيرا في الحيوانات والنباتات ، ففي أوربا تراجعت الرنة والحيوانات الأخرى التي تعيش في البرد نحو الشمال وامتلات غابات البلوط الكثيفة بمجموعة مختلفة تماما من الحيوانات كالأيائل والثور الوحشي والخنزير البري ، وأصبح الصيد بدون شك أكثر صعوبة . ومن الجائز أن ذلك العصر كان عصر هجرة كثيرة ، وأخذ البابليوليتون يتجولون بعيدا عن مساكنهم ليبدأوا الحياة في أى مكان يصلون إليه قبل غيرهم . وكيفما كان الحال فإن الآثار الحضارية لهذا العصر الذى جاء مباشرة بعد العصر الجليدى في أوربا ، تدعو إلى الأسف فهي تكشف لنا عن حياة فقيرة لمجموعات متفرقة من الناس كان أكثرهم يتعيشون من صيد السمك أكثر من صيد الحيوانات . وربما كان أكثر ما يدعو إلى الاهتمام هو آثار حياة هؤلاء الأوائل في اسكنديناوه حيث نجا الجزء الجنوبى منها



شكل : ٧ رسم على صخر فى شمال أفريقيا يمثل أنشى فيل تحمى صغيرها من هجوم نمر

الفيل الام تلف خرطومها حول صغيرها لتبعد عنه النمر الذى يتأهب للانقضاض عليه . ولم يكن مثل هذا الموقف يدوم أكثر من ثوان قليلة ولكن عين الصياد الافريقى الشمالى التقطت المنظر ، ومن الجائز أن يكون قد رسم رسما سريعا له ثم رسمه كبيرا بعد ذلك على احدى الصخور الهائلة فى جنوب الجزائر . ووجود مثل هذا المنظر فى أكثر مناطق الصحراء جديا يعتبر دليلا على أن الهضبة الصحراوية كانت منذ آلاف السنين منطقة خصبة تتمتع بمطار غزيرة

(عن أوبرمايرو فروبنيوس Obermaier-Frobenius)

من الغطاء الجليدى الشمالى وكان صالحا لإقامة الناس قبل ١٠٠٠٠ سنة تقريبا (١) .
وبينما نحن نفترض حدوث عصر هجرة بين أقوام أوربا بعد العصر الجليدى ،
فإننا نملك الدليل القاطع على أن الأقوام الذين عاشوا جنوب البحر الأبيض المتوسط
اضطروا لأن يهاجروا من الهضبة التى اتخذوها مكانا لهم ليبحثوا عن مقام جديد
وأساليب جديدة للعيشة . وفى وقت ما فى العصر الجليدى بدأت الأمطار التى طالما
سقطت بكثرة على شمال إفريقيا تتوقف عن الهطول ، وبالرغم من أنه لم يعرف بعد
السبب الحقيقى فى قلتها وندرة سقوطها فإن نقصان سقوط المطر كان سببا فى جفاف
هضبة الصحراء العظيمة بالتدريج .

واختفت تدريجيا بعد ذلك نباتاتها التى جفت . وبعد بضعة آلاف من السنين
تحولت الهضبة الأفريقية الشمالية إلى الصحراء الجرداء التى نعرفها الآن .

وكان وادى النيل فى هذه الفترة ذا منفعة حيوية لهؤلاء الصيادين الذين
كانوا يعيشون فى تلك الهضبة الصحراوية . ووادى النيل ليس إلا مجرى أو شقابين
حبلين لا يزيد اتساعه فى أى مكان عن خمسين كيلومترا تحف به من الجانبين صخور
يختلف ارتفاعها من بضعة مئات إلى آلاف الأقدام . وقد هبأ هذا النهر العظيم الذى
يتدفق فى ذلك الوادى مقاما جديدا يتوفر فيه المياه لصيادى العصر الحجري مما
جعلهم يتركون موطنهم الأصيل ويستقرون على امتداد شاطئ النيل ، وأصبح هذا
الوادى العظيم وطننا آمنا إذ كانت الصحراء الجافة تحميه من الجانبين ، ولم تكن
الثلوج وموجات البرد الشديد شمال البحر الأبيض المتوسط تصل إليه ، وعاش
السكان فى هذا الوادى ، وسرعان ما تقدموا ومن ثم تحولوا من جامعين للغذاء
إلى منتجين له .

١ - أحصى البارون جيرارد دى Capitan-Brenil-Peyrony العالم الجيولوجى السويدي ولامبده
طبقات الطين التى أرسبتها الطبقة الجليدية أثناء تقيدها نحو الشمال عبر اسكتلندا فى نهاية
العصر الجليدى . ويعتقد أن كل طبقة تمثل الطين الذى انسلطه طيف الغطاء الجليدى من كل صيف .
وبهذه الكيفية حصلنا على تقدير عشرة آلاف سنة